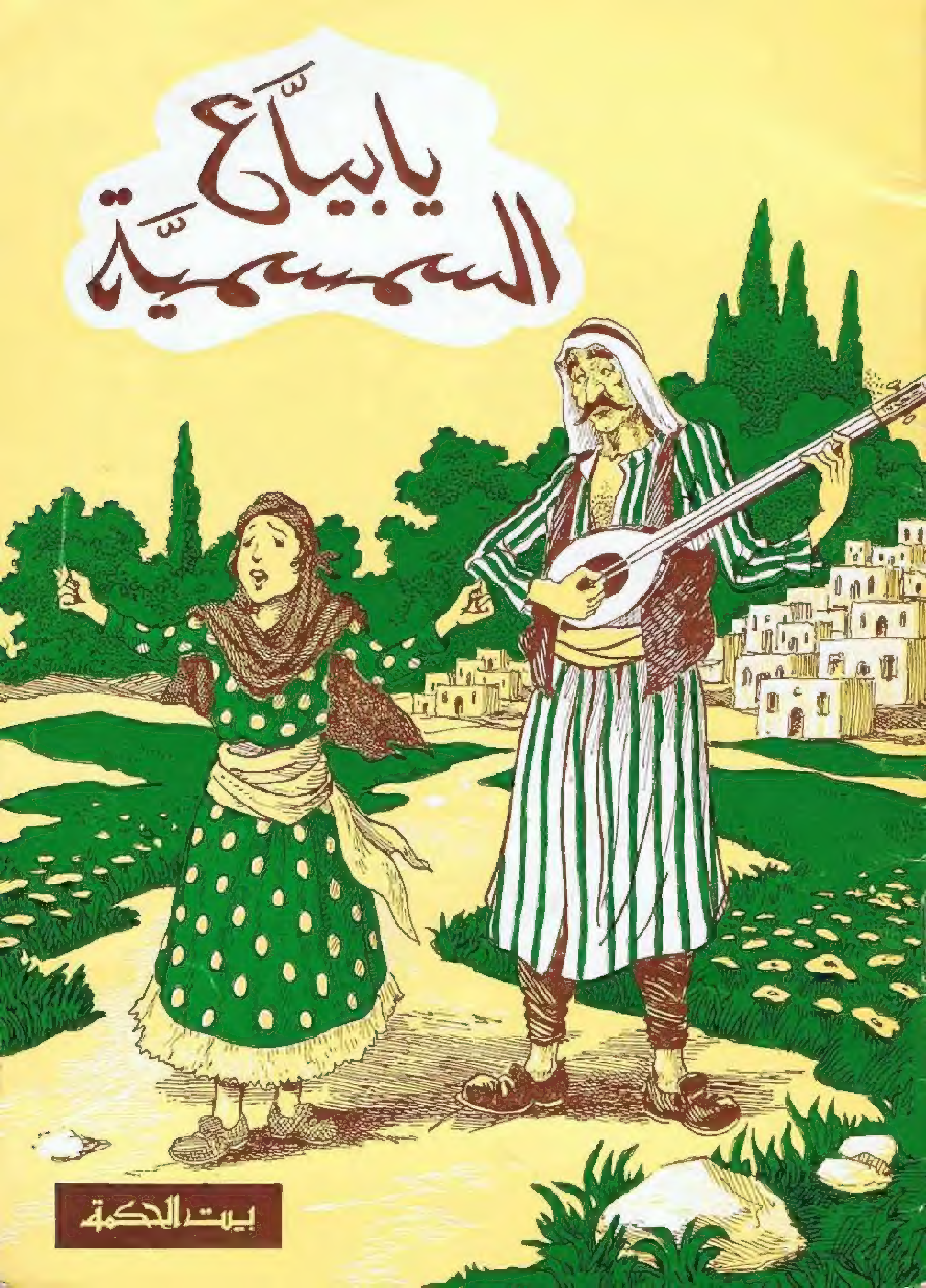

يابيّاع السمسميّة
بيت الحكمة

سلسلة «قصصنا الشعبي»

يا بيّاع السّمسميّة!

كتبها : جوزفين سعود وانطوان سعود
أشرف عليها : جبران سعود
رسم لوحاتها : رضوان الشهال

بيت الحكمة
بيروت

الطبعة الثامنة ، بيروت — لبنان ، آذار (مارس) ١٩٨٩

١ - أَلْقَـرْيَةُ في عِيـد !

أَلْقَرْيَةُ فِي عِيدٍ ! إِنَّهُ عِيدُ ٱلْقِطَافِ(١) ، يَحْتَفِلُ بِهِ ٱلسُّكَّانُ يَوْماً كامِلاً فِي كلِّ عامٍ ، بَعْدَ ٱنْتِهائِهِمْ مِنْ قَطْفِ ٱلْعِنَبِ ٱلشَّهِيِّ ٱلنَّاضِج . فِيهِ يَعْصِرُونَ قِسْماً مِنْ غِلالِهِمْ(٢)° فَيطْبُخُونَهُ فِي الدُّسُوتِ(٣) ٱلْكَبِيرَةِ ، فَتُعْطِي ٱلْعَنَاقِيدُ اللُّؤْلُئِيَّةُ دِبْساً ذَهَبِيّاً طَيِّباً . وَأَمَّا ٱلْعِنَبُ ٱلْباقِي فَيَبِيعُونَهُ مِنَ ٱلتُّجَّارِ(٤) ٱلَّذِينَ يَقْصِدُونَ قَرْيَتَهُمْ وَٱلْقُرَى ٱلْمُجَاوِرَةَ ٱلأُخْرَى .

فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ٱلْجَمِيلِ مِنْ أَيَّامِ أَيْلُولِ ٱلْحَارِّ ، ٱنْصَرَفَ أَهَالِي ٱلْقَرْيَةِ جَمِيعاً ، كِباراً وَصِغاراً ، يَحْتَفِلُونَ كَٱلْمُعْتَادِ بِعِيدِ القِطاف .

خَرَجَتْ « لَيْلَى » مِنْ مَنْزِلِ وَالِدَيْها بَعْدَ ٱلظُّهْرِ ، بِثِيَابٍ جَدِيدَةٍ زاهِيَةٍ(٥) ، وَفِي جَيْبِهَا قُرُوشٌ كَثِيرَةٌ ، فَٱتَّجَهَتْ بِخُطًى خَفِيفَـةٍ مُتَرَقِّصَةٍ(٦) نَحْوَ ساحَةِ ٱلْقَرْيَـةِ حَيْثُ تَجْرِي ٱلاحْتِفَالاتُ ٱلْجَمِيلَة . هِيَ ٱبْنَةُ ٱلشَّيْخِ « جابِرٍ » ، مُخْتَارِ ٱلْقَرْيَةِ وَزَعِيمِها(٧) ٱلْمَحْبُوبِ ، لَهَا مِنَ ٱلْعُمْرِ سَبْعُ سَنَوَاتٍ ، جَمِيلَةُ ٱلْوَجْهِ ، يُحِبُّهَا ٱلْجَمِيعُ لِفِطْنَتِهَا(٨) ، وَخِفَّةِ ظِلِّها ، وذَكَائِها ، وَيُحِبُّونَ شامَتَيْنِ(٩) جَمِيلَتَيْنِ كانَتا لَها فِي وَسَطِ خَدِّها .

إِلْتَقَتْ « لَيْلَى » فِي طَرِيقِها بَعْضَ صَدِيقاتِها، فَتَهافَتْنَ[10] عَلَيها وهُنَّ فَرِحاتٌ مِثْلَها، وسِرْنَ كُلُّهُنَّ مُبْتَهِجاتٍ يُمَنِّيْنَ النَّفْسَ[11] بِقَضاءِ وَقْتٍ مُمْتِعٍ .

كانَتِ الْمِهْرَجاناتُ[12] آياتٍ[13] مِنَ الْبَهْجَةِ وَالرَّوْعَةِ . فَفِي رُكْنٍ[14] مِنَ الأَرْكانِ وَقَفَ لاعِبُو السَّيْفِ وَالتُّرْسِ[15] يَعْرِضُونَ ما لَدَيْهِمْ مِنْ فَنٍّ وَرَشاقَةٍ . وَفِي رُكْنٍ آخَرَ راحَتْ فِرْقَةُ الْقَرْيَةِ الْمُوسِيقِيَّةُ تَعْزِفُ أَلْحاناً شَعْبِيَّةً عَذْبَةً ، فِيما انْصَرَفَ الشُّبّانُ والشّابّاتُ يَرْقُصُونَ الدَّبْكَةَ عَلى أَنْغامِها . وَفِي رُكْنٍ ثالِثٍ أَخَذَ الأَطْفالُ يَلْهُونَ بِما يَطِيبُ لَهُمْ مِنَ الأَلْعابِ الْمُسَلِّيَةِ . وَطافَ بائِعُو الْحَلْوَى وَالْمُرَطِّباتِ فِي السّاحَةِ يَعْرِضُونَ عَلى النّاسِ أَصْنافَهُمُ الْمُتَعَدِّدَةَ الشَّهِيَّةَ . وَأَمّا النَّوَرُ[16] فَقَدِ انْقَسَمُوا جَماعاتٍ جَماعاتٍ ، فِيها الْعازِفُونَ والرّاقِصُونَ وَالْمُغَنُّونَ مِنْ مُخْتَلِفِ الأَعْمارِ . كانُوا مُتْعَةً لِلنّاظِرِينَ[17] بِثِيابِهِمُ الزّاهِيَةِ ، وَأَلْعابِهِمُ الْمُدْهِشَةِ ، وَرَقَصاتِهِمُ الْخَفِيفَةِ ، الَّتِي يَحْمِلُونَها إِلَى الْقَرْيَةِ فِي مِثْلِ هٰذا الْمِهْرَجانِ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ .

وَقَفَتْ « لَيْلَى » تَنْظُرُ مَعَ صَدِيقاتِها إِلى نُورِيَّةٍ شابَّةٍ تُغَنِّي ، يُرافِقُها عَلَى الطُّنْبُورِ نُورِيٌّ كَهْلٌ[18] ، بَيْنَما راحَتْ نُورِيَّةٌ صَغِيرَةٌ ، فِي مِثْلِ سِنِّها ، تَرْقُصُ عَلى الأَنْغامِ وَهِيَ تَتَمايَلُ مُبْتَسِمَةً . رَنَتْ[19] « لَيْلَى » لِلنُّورِيَّةِ الصَّغِيرَةِ وَهِيَ تَقُولُ فِي نَفْسِها :

- يا لَلصَّغِيرَةِ ٱلْمِسْكِينَةِ ! وَيا لَلْعَمَلِ ٱلشَّاقِّ ! لا رَيبَ أَنَّها تَشْقَى بِما تَقُومُ بِهِ مِنْ عَمَلٍ مُرْهِق !



وَما إِنِ ٱنْتَهَتِ ٱلرَّاقِصَةُ ٱلصَّغِيرَةُ مِنْ رَقْصِها حَتَّى تَقَدَّمَتْ «لَيْلَى» مِنْها وَوَضَعَتْ فِي دَفِّها شَيْئاً مِنَ ٱلْمالِ ٱلَّذِي كانَ في حَوزَتِها[٢٠]

عادَتْ « لَيْلَى » تَتَنَقَّلُ مَعَ صَدِيقَاتِها مِنْ زَاوِيَـةٍ إلى زَاوِيَةٍ، تَجُولُ بِبَصَرِها فِي أَرْجاءِ ٱلساحَةِ[٢١] ٱلْفَسِيحَة ،وَكَأَنَّها تُرِيـدُ أَنْ لا يَفُوتَها مِنَ ٱلْعِيدِ شَيْءٌ[٢٢]. وَفَجْأَةً شاهَدَتْ «كرِيماً»، بائِعَ ٱلسَّمْسِمِيَّةِ، وَهُوَ شابٌّ شَرِيفٌ يَسْكُنُ بَيْتاً صَغِيراً فِي جِوارِ[٢٣] بَيتِها. كانَتْ « لَيْلى » تَشْتَرِي مِنْـهُ ٱلسَّمْسِمِيَّةَ ٱللَّذِيذَةَ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، وَأَهْلُ ٱلْقَرْيَةِ جَمِيعاً يَشْتَرُونَها مِنْهُ لِأَنَّها أَطْيَبُ أَنْوَاعِ ٱلسَّمْسِمِيَّةِ إِطْلاقاً[٢٤]. وَكانَ « كرِيمٌ » يَكُنُّ[٢٥] « لِلَيْلَى »

ٱبْنَةِ ٱلشَّيخِ « جابِرٍ » مَوَدَّةً[٢٦] مُنْذُ صِغَرِها : فَهُوَ يُجِلُّ[٢٧] أبَوَيْها، وَيُحِبُّها لِتَهْذِيبِها، وَذَكائِها، ولُطْفِها .

إبْتَسَمَ « كريمٌ » « لِلَيْلَى » ساعَةَ ٱقْتَرَبَتْ مِنْهُ وَصَدِيقاتِها يَشْتَرِيْنَ مِنْ سِمْسِمِيَّتِه ٱللَّذيذَة . وَلَكِنَّ « كَرِيماً » أَعْطَى « لَيْلَى » دُونَ سِوَاها قِطْعَةً إضافِيَّةً مِنَ ٱلحَلْوَى[٢٨]، وَقالَ لَهَا كَٱلْمُعْتادِ مُداعِباً :

- كُلِي، أَلْفَ صِحَّةٍ يا صَبِيَّةُ !

وَٱنْصَرَفَتْ « لَيْلَى » عَنْهُ مَعَ صَدِيقاتِها شاكِرَةً ضاحِكَة .

وَبَعْدَ ما أَكَلَتِ ٱلصَّغيراتُ ٱلسِّمْسِمِيَّةَ ٱلطَّيِّبَةَ، وَٱبْتَعَدْنَ قَلِيلاً عَنِ ٱلضَّوْضاءِ، قالَتْ « لَيْلَى » لَهُنَّ :

- هَلُمَّ نَلْعَبْ بِٱلْغُمَّيْضَة .

فَصَفَّقَتِ ٱلْفَتَياتُ لِلْفِكْرَةِ طَرَباً وَوافَقْنَ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّد .

أَغْمَضَتْ إحْداهُنَّ عَيْنَيْها، وَٱنْطَلَقَتِ ٱلْفَتَياتُ ٱلْباقِياتُ تُحاوِلُ كُلٌّ مِنْهُنَّ أَنْ تَجِدَ لِنَفْسِها مَخْبَأً . وَظَلَّتْ « لَيْلَى » تَبْحَثُ عَنْ مَخْبَإٍ لَها وَهِيَ تَتَنَقَّلُ مِنْ زاوِيَةٍ إلى زاوِيَةٍ وَمِنْ شَجَرَةٍ إلى شَجَرَةٍ ، حَتَّى بَعُدَتْ كَثِيراً عَنِ ٱلطَّرِيق . فَلَمْ تَبْقَ تَسْمَعُ مِنَ ٱلاْحْتِفالِ إلَّا أَصْداءً[٢٩] بَعِيدَةً خافِتَةً .

وَفَجْأَةً وَجَدَتْ « لَيْلَى » نَفْسَها في غابَةٍ كَثِيفَةِ ٱلأَشْجارِ، كَثِيرَةِ

ٱلصُّخُورِ، فَظَنَّتْ أَنَّها قَدْ وَجَدَتْ مَخْبَأُها ٱلْمَنْشُودَ، فَلَجَأَتْ إِلى صَخْرَةٍ عالِيَةٍ وَقَبَعَتْ[٣٠] وَراءَها.

بَقِيَتْ هُناكَ مُدَّةً طَوِيلَةً. وَلَمْ تَأْتِ صَدِيقاتُها لِلْبَحْثِ عَنْها، فَقَامَتْ مِنْ مَكانِها مُبْتَسِمَةً، مُعْتَقِدَةً أَنَّها قَدْ خَدَعَتْهُنَّ، وَأَنَّهُنَّ لَنْ يَسْتَطِعْنَ ٱلْعُثُورَ عَلَيْها. وَعادَتْ تَبْحَثُ عَنْ مَخْرَجٍ تَنْطَلِقُ مِنْهُ إِلى طَرِيقِ ٱلْعَوْدَةِ. وَلكِنْ عَبَثاً حاوَلَتْ[٣١]! كانَتِ ٱلْأَشْجارُ ٱلْباسِقَةُ، وَكُتَلُ ٱلصُّخُورِ، تُحِيطُ بِها مِنْ كُلِّ جانِبٍ، فَما كانَتْ تَنْفُذُ[٣٢] إِلى مُنْفَرَجٍ[٣٣] مِنَ ٱلْغابَةِ حَتَّى تَجِدَ نَفْسَها مِنْ جَدِيدٍ في غابَةٍ أُخْرَى.

تَعِبَتْ «لَيْلَى»، وَتَسَرَّبَ[٣٤] ٱلذُّعْرُ[٣٥] إِلى صَدْرِها. فَجَلَسَتْ إِلى صَخْرَةٍ تَبْكِي وَتُنادِي. وَبَقِيَتْ هٰكَذا زَماناً طَوِيلاً حَتَّى أَدْرَكَتْها[٣٦] ٱلظُّلْمَةُ، فَٱزْدادَ خَوْفُها وَٱشْتَدَّ بُكاؤُها.

وَما لَبِثَتْ «لَيْلَى» أَنْ سَمِعَتْ[٣٧] صَوْتاً بَعِيداً يَدْنُو مِنَ ٱلْمَكانِ قَلِيلاً قَلِيلاً، وَكَأَنَّهُ رَنِينُ ٱلْأَجْراسِ ٱلصَّغِيرَةِ ٱلَّتِي تُعَلَّقُ في أَعْناقِ ٱلْبَهائِمِ. إِنْتَعَشَ قَلْبُها فَرَحاً، فَراحَتْ تَرْكُضُ في ٱلْغابَةِ نَحْوَ مَصْدَرِ ٱلصَّوْتِ. وَما هِيَ إِلَّا دَقائِقُ حَتَّى أَبْصَرَتْ جَماعَةً مِنَ ٱلنَّوَرِ قادِمِينَ نَحْوَها وَقَدْ رَفَعُوا عَلى ٱلدَّوابِّ أَمْتِعَتَهُمْ[٣٨] وَأَطْفالَهُمْ، عائِدِينَ مِنَ ٱلْمِهْرَجانِ نَحْوَ مَضارِبِهِمُ[٣٩] ٱلْبَعِيدَةِ.

أَلْقَتْ «لَيْلَى» عَلَيْهِمُ ٱلتَّحِيَّةَ، فَٱقْتَرَبَتْ مِنْها نُورِيَّةٌ عَجُوزٌ

وَأَخَذَتْ تَتَفَحَّصُها مِنْ رَأْسِها إِلى قَدَمَيْها . قالَتِ ٱلنُّورِيَّةُ :

ـ ما لَكِ يا بُنَيَّةُ ؟



أجابَتْ « لَيْلَى » خائِفَةً :

- كُنْتُ أَلْعَبُ مَعَ صَدِيقاتِي. وَضَلَلْتُ ٱلطَّرِيقَ وَسَطَ ٱلْغابَةِ .

هَدَّأَتِ ٱلنُّورِيَّةُ ٱلْعَجُوزُ مِنْ رَوْعِها[1] . ثُمَّ ٱرْتَسَمَ فِي عَيْنَيْها بَرِيقٌ عَجِيبٌ . وَٱسْتَدارَتْ نَحْوَ نُورِيٍّ عَجُوزٍ تَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ كَلِماتٍ قَلِيلَةً. فَأَقْبَلَ عَلَى « لَيْلَى » يُلاطِفُها واعِداً بِأَنْ يُعِيدَها إِلَى ذَوِيها لِلْحالِ .

إِسْتَأْنَفَ ٱلنَّوَرُ ٱلْمَسِيرَ وَمَعَهُمْ « لَيْلَى ». وَهُمْ يَتَهامَسُونَ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ ناظِرِينَ إِلَى رَفِيقَتِهِمُ ٱلْجَدِيدَةِ. وَبَعْدَ سَيْرٍ طَوِيلٍ شاقٍّ عَبْرَ ٱلتِّلالِ وَٱلْوِهادِ[2] ٱلْوَعْرَةِ أَخَذَ ٱلتَّعَبُ مِنْ « لَيْلَى » كُلَّ مَأْخَذٍ[3] . بَكَتْ . وَشاهَدَتْها ٱلنُّورِيَّةُ ٱلْعَجُوزُ تَبْكِي. فَلَمْ تُشْفِقْ عَلَيْها، بَلْ نَهَرَتْها[4] وَهَدَّدَتْها بِٱلضَّرْبِ إِنْ هِيَ رَفَعَتْ صَوْتَها .

غَصَّتِ ٱلصَّغِيرَةُ ٱلْمِسْكِينَةُ بِٱلدَّمْعِ حِينَ سَمِعَتْ هٰذا ٱلتَّهْدِيدَ ٱلْمُفاجِئَ، وَتابَعَتْ سَيْرَها مَعَ ٱلنَّوَرِ وَهِيَ تَجُرُّ خُطاها جَرّاً .

حَلَّ ٱللَّيْلُ[5] بِظُلْمَتِهِ ٱلْحالِكَةِ. وَسَمِعَتْ « لَيْلَى » نُباحَ كِلابٍ صادِراً مِنْ وَراءِ ٱلتَّلَّةِ ٱلَّتِي وَصَلُوا إِلَيْها. فَلاحَ فِي عَيْنَيْها ٱلْجَمِيلَتَيْنِ بَرِيقُ أَمَلٍ ؛ وَهِيَ تَقُولُ لِنَفْسِها :

- أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ! أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ! سَأَرَى وَالِدَيَّ عَمّا قَرِيبٍ !..

وَصَلَ ٱلنَّوَرُ، وَمَعَهُمْ « لَيْلَى »، إلى قِمَّةِ ٱلتَّلَّةِ، فَنَظَرَتْ بِشَوْقٍ إلى ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْأُخْرَى وَهِيَ عَلى يَقينٍ مِنْ أَنَّها قَدْ وَصَلَتْ إلى مَدْخَلِ قَرْيَتِها. وَلٰكِنْ، يا لَخَيْبَةِ أَمَلِها! فَقَدِ ٱسْتَطاعَتْ أَنْ تَرَى في ٱللَّيْلِ ٱلْحالِكِ خِياماً مَنْصُوبَةً بَيْنَ ٱلْأَشْجارِ، وَٱلْكِلابَ تُهَرْوِلُ[٢٥] نَحْوَ ٱلْقادِمِينَ نابِحَةً.



عِنْدَئِذٍ عَلِمَتْ « لَيْلى » أَنَّ ٱلنَّوَرَ قَدْ سَرَقُوها وَأَبْعَدُوها عَنْ أَهْلِها، وَأَنَّها قَدْ وَصَلَتْ مَعَهُمْ إلى مَضارِبِهِمْ!.. فَأَجْهَشَتْ بِالْبُكاءِ[٢٦]، ثُمَّ خَرَّتْ[٢٧] عَلى وَجْهِها تَسْقِي ٱلتُّرابَ مِنْ دَمْعِها.

* * *

في ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ كانَ ٱلشَّيْخُ « جابِرٌ » يَبْحَثُ عَنْ « لَيْلى » في خَراجِ ٱلْقَرْيَةِ[٢٨] مَعَ جَماعَةٍ مِنَ ٱلرِّجالِ ٱلْأَشِدّاءِ عَلى ضَوْءِ ٱلْمَشاعِلِ[٢٩] ذٰلِكَ أَنَّ صَديقاتِ « لَيْلى » قَدْ عُدْنَ إلى بُيُوتِهِنَّ بَعْدَ ٱلْمَغيبِ وَلَمْ

تَعُدْ « لَيْلى » مَعَهُنَّ. فَتَسْتَبِدُّ غُصَّةٌ [illegible] بِأُمِّها وَأَبِيها ؛ وَبَعْدَ ٱنْتِظارٍ يائِسٍ خَرَجَ ٱلشَّيْخُ «جابِرٌ» مَعَ رِجالِهِ يَبْحَثُونَ عَنْ « لَيْلى » لِيَعُودُوا بِها إلى ٱلْأُمِّ ٱلْمِسْكِينَةِ ٱلَّتِي كانَتْ تَنْتَظِرُها بِقَلَق .

لَمْ يَتْرُكِ ٱلشَّيْخُ « جابِرٌ » وَرِجالُهُ بُقْعَةً مِنَ ٱلْغابَةِ إلَّا فَتَّشُوا أَرْجاءَها. حَتَّى تَجاوَزُوا ٱلْقَرْيَةَ وَبَعْضَ ٱلْقُرَى ٱلْمُجاوِرَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجِدُوا «لِلَيْلى» أَثَراً . وَكانَ ٱللَّيْلُ قَدِ ٱنْتَصَفَ، فَعادُوا خائِبِينَ[٥١].

دَخَلَ ٱلشَّيْخُ « جابِرٌ » إلى مَنْزِلِهِ مُتَجَهِّمَ[illegible] ٱلْوَجْهِ ، فَسارَعَتْ أُمُّ « لَيْلى » بِلَهْفَةٍ تَسْتَطْلِعُهُ ٱلْخَبَرَ . وَلٰكِنْ سُرْعانَ ما تَحَوَّلَ رَجاؤُها إلى حِينِهِ[illegible] ، فَجَلَسَتْ تَبْكي بِمَرارَةٍ، وَزَوْجُها لا يَدْرِي كَيْفَ يُخَفِّفُ عَنْها وَطْأَةَ ٱلْحُزْن . قالَ لَهَا :

ـ لا تَفْقِدِي ٱلرَّجاءَ يا عَزِيزَتِي . سَنَعُودُ إلى ٱلْبَحْثِ عَنْ « لَيْلى » عِنْدَ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ، وَإنَّنا لَواجِدُوها بِإِذْنِ ٱللهِ .

لَمْ يَغْمُضْ لِلْوالِدَيْنِ جَفْنٌ فِي تِلْكَ ٱللَّيْلَة . وَما إنْ لاحَ ٱلْفَجْرُ حَتَّى رَكِبَ ٱلشَّيْخُ « جابِرٌ » وَرِجالُهُ ٱلْخَيْلَ، وَٱنْطَلَقُوا ؛ وَما زالُوا فِي بَحْثٍ مُسْتَمِرٍّ حَتَّى ٱنْقَضَى ٱلنَّهارُ مِنْ غَيْرِ جَدْوَى[٥٤] . كانُوا يَسْأَلُونَ عَنْ « لَيْلى » فِي كُلِّ قَرْيَـةٍ ، فِي كُلِّ بَيْتٍ، يَسْأَلُونَ ٱلْفَلَّاحِينَ ٱلَّذِينَ ٱنْصَرَفُوا إلى أَشْغالِهِمْ فِي ٱلْحُقُولِ، وَٱلْمارِّينَ ٱلَّذِينَ

يلْتَقُونَهُمْ في طَرِيقِهِمْ . وَلَكِنَّ أَحَداً مِنْهُمْ لَمْ يَهْدِهِمْ إلى بَصيصِ أَمَلٍ .



عادَ ٱلشَّيْخُ « جابِرٌ » إلى زَوْجِهِ بِٱلْخَيْبَةِ ، فَجَلَسَ ٱلْاِثْنانِ يَبْكِيانِ بُكاءً مُرًّا ، وَقَدْ فَقَدا كُلَّ أَمَلٍ في ٱلْعُثُورِ على ٱبْنَتِهِما !

٢- «لَيْلَى» النُّورِيَّة

لَمْ تَعْرِفْ «لَيْلى» طَعْماً لِرُقادٍ[٥٦] لَيْلَةَ ٱخْتِطافِها . كانَتِ ٱلنُّورِيَّةُ ٱلْعَجُوزُ قَدْ خَلَعَتْ عَنْها ثِيابَها ٱلْجَمِيلَةَ ٱلزَّاهِيَةَ وَأَلْبَسَتْها رِداءً أَسْوَدَ طَوِيلًا ، ثُمَّ أَدْخَلَتْها إلى خَيْمَتِها وَفَرَشَتْ لَهَا عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْها حَصِيراً مُمَزَّقاً بالِياً ، وَأَمَرَتْها بِأَنْ تَنامَ وَأَلَّا تَأْتِيَ حَراكاً[٥٧] . وَعَبَثاً حاوَلَتِ ٱلصَّغِيرَةُ ٱلْمِسْكِينَةُ أَنْ تَنامَ ؛ وَكَيْفَ لَهَا أَنْ تَنامَ وَقَدْ سُلِخَتْ مِنْ أَحْضانِ والِدَيْهَا ؟!

وَما ٱنْبَلَجَ ٱلصَّباحُ[٥٨] حَتَّى ٱنْصَرَفَتِ ٱلْعَجُوزُ إلى «لَيْلى» ساعاتٍ طِوالًا ، فَصَبَغَتْ شَعْرَها بِٱلْحِنَّاءِ[٥٩] ، وَكَحَّلَتْ رُمُوشَ عَيْنَيْها . فَتَبَدَّلَتْ مَلامِحُ[٦٠] ٱلصَّغِيرَةِ . وَلَوْ أَنَّ ذَوِيْهَا شاهَدُوها فِي تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ لَظَنُّوا أَنَّها نُورِيَّةٌ أَصْلِيَّةٌ !

وَفِي ٱلْأَيَّامِ ٱلتَّالِيَةِ راحَتِ ٱلنُّورِيَّةُ ٱلْعَجُوزُ تُلَقِّنُ «لَيْلى» ٱلرَّقْصَ وَٱلْغِناءَ ، فَلَمْ تُحْسِنْهُما فِي بادِئِ ٱلْأَمْرِ ؛ وَكانَتِ ٱلنُّورِيَّةُ تَضْرِبُها بِقَسْوَةٍ وَتُرْغِمُها عَلى مُتابَعَةِ ٱلْعَمَلِ بِلا هَوادَةٍ[٦١] . وَكانَ ٱلنَّوَرُ يَنْظُرُونَ إلى ٱلصَّغِيرَةِ ٱلْبائِسَةِ غاضِبِينَ وَيُعَنِّفُونَها[٦٢] كُلَّما سَنَحَتْ لَهُمْ سانِحَةٌ[٦٣]

رَضَخَتْ « لَيْلى » لِشَقاءِ حالِهَا. وَٱسْتَطاعَتْ. بِفَضْلِ إِرادَتِها وَفِطْنَتِها وَذَكائِها، أَنْ تَتَعَلَّمَ فُنُونَ ٱلنَّوَرِ. حَتَّى أَصْبَحَتْ بَعْدَ



مُدَّةٍ تُتْقِنُها وَتَفُوقُ بِها بَناتِ ٱلنَّوَرِ أَنْفُسَهُنَّ .

وَتَدَرَّبَتْ « لَيْلى » عَلى أُصُولِ ٱلْمِهْرَجاناتِ وَٱلْحَفَلاتِ ٱلَّتِي يَذْهَبُ إِلَيْها ٱلنَّوَرُ سَعْياً وَراءَ ٱلْمالِ . فَكانَتْ تَرْقُصُ مُتَمايِلَةً ، وَتُغَنِّي بِصَوْتٍ جَمِيلٍ ، حَتَّى إِنَّهَا كَانَتْ تُؤَلِّفُ الأَغانِي وَتَرْتَجِلُها[65] بِنَبْرَةٍ حَزِينَة . وَلَفَتَتِ ٱلْفَتاةُ أَنْظارَ ٱلْمُتَفَرِّجينَ بِجَمالِهَا وَفَنِّها غَيْرَ مَرَّةٍ[66] . فَكانُوا يُشْفِقُونَ عَلَيْها وَيُجْزِلُونَ[67] لَها ٱلْعَطاءَ حِينَ تَدُورُ عَلَيْهِمْ لِتَجْمَعَ مِنْهُمُ ٱلْمالَ بَعْدَ إِتْمامِ عَمَلِها . وَفَرِحَ ٱلنَّوَرُ لِمَهارَةِ « لَيْلى » وَتَحْصِيلِها ٱلْمُثْمِرِ ، فَكَفُّوا[68] عَنْ ضَرْبِهــا وَتَحْقِيرِها ، وَتَرَكُوها لِحُزْنِها وَشَقائِها .

بَيْدَ أَنَّ[69] ٱلصَّغِيرَةَ ٱلْمِسْكِينَةَ لَمْ تَعْرِفْ لِلسَّعادَةِ طَعْماً . وَبَقِيَتْ مَعَ ٱلنَّوَرِ عَلى هٰذِهِ ٱلْحالِ خَمْسَ سَنَواتٍ طِوالٍ لَمْ تَفْقِدْ خِلالَهَا ٱلرَّجاءَ . كانَتْ تَذْهَبُ مَعَ ٱلنَّوَرِ إِلى ٱلْقُرَى لِلرَّقْصِ وَٱلْغِناءِ ، فَتَتَفَرَّسُ فِي وُجُوهِ ٱلْمُتَفَرِّجِينَ عَلَّها تَجِدُ[70] بَيْنَهُمْ وَجْهاً أَلِيفاً يُعِيدُها إِلى وَالِدَيْها . وَلٰكِنْ أَنَّى لَهَا أَنْ تَرى مَنْ تَعْرِفُهُ[71] . وَٱلنَّوَرُ يَتَنَقَّلُونَ بَيْنَ قَرْيَةٍ وَأُخْرَى لا يَسْتَقِرُّونَ[72] فِي مَكان ؟

وَفِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ ٱلرَّبِيعِ تَوَجَّهَ ٱلنَّوَرُ إِلى إِحْدَى ٱلْقُرَى ٱلْكَبِيرَةِ ٱلْمُجاوِرَةِ بِمُناسَبَةِ عِيدِ ٱلرَّبِيعِ فِيها . وَهٰذا ٱلْعِيدُ يَسْتَغْرِقُ[73] أُسْبُوعاً كامِلًا .

عِيدُ ٱلرَّبِيعِ! وَمَا عِيدُ ٱلرَّبِيعِ بِٱلنِّسْبَةِ «لِلَيْلى»؟ يَقُولُونَ إِنَّ فِي ٱلرَّبِيعِ سَعادَةً وَأَمَلًا. وَلٰكِنَّ ٱلسَّعادَةَ باتَتْ حُلُماً بَعِيداً يُداعِبُ خَيالَ «لَيْلى»؛ وَأَمَّا ٱلْأَمَلُ فَكانَ ٱلنُّورَ ٱلْوَحِيدَ ٱلضَّئِيلَ ٱلَّذِي يَبْعَثُ[٧] فِي قَلْبِها بَعْضَ ٱلْحَياةِ!

٣ - بَيّاعُ السِّمْسِمِيَّة !

وَصَلَ ٱلنَّوَرُ إلى خَراجِ ٱلْقَرْيَةِ عَشِيَّةَ ٱبْتِداءِ ٱلْعِيدِ ، وَضَرَبُوا خِيامَهُمْ فِي بُقْعَةٍ هادِئَةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ ٱلطَّرِيقِ .

وَفِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي ذَهَبُوا إلى ٱلْقَرْيَةِ يَعْرِضُونَ فُنُونَهُمْ . مُخَلِّفِينَ[٧٥] وَراءَهُمْ شُيُوخَهُمْ وَأَطْفالَهُمْ . قامُوا يُغَنُّونَ وَيَرْقُصُونَ . وَ« لَيْلى » تَرْقُصُ وَتُغَنِّي مَعَهُم .

كانَتِ ٱلْاَحْتِفالاتُ رائِعَةً ، فِيها أَلْوانٌ شَتَّى مِنَ ٱللَّهْوِ وَٱلتَّسْلِيَة . تَذَكَّرَتْ « لَيْلى » عِيدَ ٱلْقِطافِ فِي قَرْيَتِها . فَٱنْسابَتْ[٧٦] عَلى خَدَّيْها دُمُوعُ ٱلْحَسْرَة !

وَفِيما هِيَ فِي رَقْصِها وَغِنائِها راحَتْ تَنْظُرُ إلى ٱلشُّبَّانِ يَرْقُصُونَ ٱلدَّبْكَةَ ، وَإلى ٱلرِّجالِ يَلْعَبُونَ بِٱلسَّيْفِ وَٱلتُّرْسِ ، وَإلى ٱلْأَطْفالِ يَلْهُونَ وَيَمْرَحُونَ . وَخُيِّلَ « لِلَيْلى » أَنَّ عَجَلَةَ ٱلزَّمانِ تَعُودُ بِها إلى ٱلْوَراءِ . آه ! يا لَلْحُلُمِ ٱلْجَمِيل ! فَقَدْ رَأَتْ نَفْسَها تَلْهُو مَعَ ٱلْأَوْلادِ فَرِحَةً سَعِيدَةً . لا يُعَكِّرُ صَفْوَ حَياتِها غَمٌّ أَوْ كَرْب[٧٧] . وَطافَتْ بِبَصَرِها[٧٨] مِنْ جَدِيدٍ فِي ٱلْبائِعِينَ . وَٱلْأَطْفالُ يَشْتَرُونَ ٱلْحَلْوَى وَيَلْتَهِمُونَها .

فَهِيَ فِي ٱلسِّنِينَ ٱلْخَمْسِ ٱلَّتِي عاشَتْها مَعَ ٱلنَّوَرِ لَمْ تَذُقْ لِلْحَلْوَى طَعْماً(٧٩)! وَٱزْدادَتْ لَوْعَتُها(٨٠) حِينَ تَذَكَّرَتِ ٱلسِّمْسِمِيَّةَ وَبائِعَ ٱلسِّمْسِمِيَّةِ. «كَرِيماً» .. ٱلَّذِي كانَ يُلاطِفُها وَيُكْرِمُها.

كانَتْ تُفَكِّرُ بِٱسْتِمْرارٍ: ماذا لَوْ أَنَّها تَقَدَّمَتْ، وَهِيَ فِي غَمْرَةِ(٨١) ٱلرَّقْصِ، مِنْ أَحَدِ ٱلْمُتَفَرِّجِينَ وَعَرَّفَتْهُ بِنَفْسِها؟ وَلٰكِنْ هَيْهاتَ أَنْ يَتِمَّ لَها ذٰلِكَ(٨٢)! فَٱلنَّوَرُ يُحِيطُونَ بِها مِنْ كُلِّ جانِبٍ، وَهُمْ يُراقِبُونَ حَرَكاتِها وَسَكَناتِها! وَهَبْ أَنَّها تَمَكَّنَتْ مِنْ ذٰلِكَ، فَكَيْفَ تُثْبِتُ حَقِيقَةَ هُوِيَّتِها(٨٣)، وَقَدْ غَدَتْ(٨٤) كَٱلنَّوَرِ زِيّاً وَمَظْهَراً؟

وَفَجْأَةً عادَتْ «لَيْلى» إِلى واقِعِها ٱلْأَلِيمِ عَلى تَصْفِيقِ ٱلْمُتَفَرِّجِينَ ٱلْمُعْجَبِينَ بِرَقْصِها وَغِنائِها، فَتَقَدَّمَتْ مِنْهُمْ كَٱلْمُعْتادِ تَجْمَعُ ٱلْمال.

ثُمَّ تَحَوَّلَتْ مَعَ ٱلْعازِفِ إِلى جَماعَةٍ أُخْرى تَعْرِضُ رَقْصَها وَغِناءَها. وَعادَ ٱلْخَيالُ يَحْمِلُها إِلى دُنْيا ٱلْأَحْلامِ. أَدارَتْ طَرْفَها(٨٥) فِي ٱلنَّاسِ، باحِثَةً، آمِلَةً. وَفَجْأَةً رَأَتْهُ! ... يا إِلٰهِي! مَنْ هٰذا؟! هَلْ هٰذا وَهْمٌ أَمْ حَقِيقَةٌ؟! لَقَدْ عَرَفَتْهُ لِلْحال! إِنَّهُ «كَرِيمٌ»، بائِعُ ٱلسِّمْسِمِيَّةِ، ٱبْنُ قَرْيَتِها!

تَسارَعَتْ دَقّاتُ قَلْبِ «لَيْلى» وَأَحَسَّتْ بِٱلنَّشْوَةِ(٨٦) تَغْمُرُها.

وَبَدَأَ مُرافِقُها ٱلنُّورِيُّ يَنْقُرُ أَوْتارَ آلَتِهِ، وَبَدَأَتْ «لَيْلى» تَرْقُصُ

وَتُغَنِّي ، وَإِذا بِها تَرْتَجِلُ أُغْنِيَةً ، كَما ٱرْتَجَلَتْ مِنْ قَبْلُ أُغْنِياتٍ أَثارَتْ بِها ٱلْإِعْجابَ[٨٧]



راحَتْ تُغَنِّي بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ مُنْفَعِلٍ[١٨] :

يَا بَيَّـاعَ ٱلسَّمْسِمِيَّهْ قُول لِأُمِّي قُول لِبَيَّهْ
كُنْتُ آكُلْ بِٱلْمَلاعِقْ صِرْتُ آكُلْ بِإِيْدَيَّهْ
كُنْتُ أَلْبَسُ ٱلْحَرايِرْ صِرْتُ أَلْبَسُ ٱلْعَبَايَا
كُنْتُ دُوق ٱلْحَلْوَى مِنَّكْ وَأَنْتَ تِتْكارَمْ عَلَيَّهْ
وِتْقُولْ لِي بْعَطْفِ وْمَحَبَّهْ أَلْفَ صِحَّهْ يَا صَبِيَّهْ

إِلْتَفَتَ « كَرِيمٌ » بَائِعُ ٱلسَّمْسِمِيَّةِ إِلى ٱلْفَتَاةِ وَهِيَ تُنْشِدُ هٰذِهِ ٱلْأُغْنِيَةَ ٱلْعَجِيبَةَ. فَلَمْ يَتَعَرَّفْ إِلَيْها فِي ٱلْبَدْءِ. فَعادَ إِلى سِمْسِمِيَّتِهِ يَبِيعُ قِطَعَها مِنَ ٱلْأَوْلادِ ٱلَّذِينَ تَجَمْهَرُوا حَوْلَه . وَلٰكِنَّ « لَيْلى » لَمْ تَيْأَسْ. فَعادَتْ تُنْشِدُ ٱلْأُغْنِيَةَ تَكْراراً. حَتَّى تَنَبَّهَ « كَرِيمٌ ». وَراحَ يَنْظُرُ إِلى ٱلنُّورِيَّةِ ٱلصَّغِيرَةِ بِإِمْعانٍ[١٩] وَتَعَجُّب . لا ! لَيْسَ فِي ٱلْأَمْرِ خَطَأٌ ! ... ٱلْعَيْنانِ ٱلْمُتَّقِدَتانِ[٢٠] ذَكاءً. إِنَّهُما عَيْنَا « لَيْلى »! ... وَٱلشَّامَتَانِ فِي وَسَطِ ٱلْخَدِّ . إِنَّهُما شامَتَا « لَيْلى ». « لَيْلى » ٱبْنَةِ ٱلشَّيْخِ « جابِر» !

وَلَمْ يَتَمالَكْ نَفْسَهُ. فَصاحَ :

– « لَيْلى » . !.. « لَيْلى » !..

وَرَأَتْ « لَيْلى » شَفَتَيْهِ تَنْطِقانِ بِٱسْمِها. وَلٰكِنْ، لِحُسْنِ حَظِّها،

لَمْ يَسْمَعْهُ أَحَدٌ في غَمْرَةِ ٱلضَّوْضاءِ[٩١] . فَٱسْتَدارَتْ مُعْرِضَةً[٩٢] عَنْهُ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُقْدِمَ على مُخاطَبَتِها فَيَنْفَضِحَ أَمْرُها .



وَعَرَفَ « كَريمٌ » حَقيقَةَ ٱلْوَضْعِ ، فَلَمْ يُطِقِ ٱنْتِظاراً ، بَلْ تَسَلَّلَ[٩٣] بَيْنَ ٱلْجُموعِ ٱلْغَفيرَةِ[٩٤] ، وَجَدَّ[٩٥] في ٱلسَّيْرِ إلى قَرْيَتِهِ لِيَنْقُلَ ٱلنَّبَأَ إلى ٱلشَّيْخِ « جابِرٍ » وَزَوْجِهِ ٱلْحَزينَةِ . وَما زالَ يَحُثُّ خُطاهُ حَتَّى بَلَغَ قَرْيَتَهُ عِنْدَ بُزوغِ[٩٦] شَمْسِ ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالي وَقَدْ أَعْياهُ ٱلتَّعَبُ . فَطَرَقَ بابَ ٱلشَّيْخِ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ وَعَلى زَوْجِهِ مَنْهوكاً[٩٧] وَلٰكِنَّ أَساريرَ[٩٨] وَجْهِهِ كانَتْ تَطْفَحُ بِشْراً[٩٩] !

٤ - السَّعادَة بَعْدَ الشَّقاء

كانَ ٱلْيَأْسُ وَٱلْحُزْنُ قَدْ أَنْهَكا ٱلشَّيْخَ وَٱلشَّيْخَةَ فِي هٰذِهِ ٱلسِّنِينَ ٱلْخَمْسِ، فَكَأَنَّ قَرْناً[١٠٠] كامِلًا قَدْ مَضَى عَلَيْهِما . شابَ شَعْرُهُما ، وَحُفِرَتْ أَخادِيدُ[١٠١] عَمِيقَةٌ فِي خَدَّيْهِما . وَمُنْذُ ضَياعِ «لَيْلى» فَقَدَا تِلْكَ ٱلْاَبْتِسامَةَ ٱللَّطِيفَةَ ٱلَّتِي كانَتْ لا تُفارِقُ ثَغْرَيْهِما ، فَبَقِيا حَزِينَيْنِ ، واجِمَيْنِ[١٠٢]، وَطَيْفُ[١٠٣] «لَيْلى» لا يُغادِرُ مُخَيِّلَتَهُما .

وَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِما «كَرِيمٌ» بائِعُ ٱلسِّمْسِمِيَّةِ عَلى هذا ٱلنَّحْوِ[١٠٤]، صاحَ بِهِما وَدُمُوعُ ٱلْفَرَحِ تَنْهَمِرُ[١٠٥] مِنْ عَيْنَيْهِ :

ـ لَقَدْ شاهَدْتُها ! شاهَدْتُ «لَيْلى» ! أَنَا أَعْرِفُ أَيْنَ هِيَ ٱلْآنَ !

كادَ ٱلشَّيْخُ وَزَوْجُهُ يَسْقُطانِ مِنْ شِدَّةِ ٱلتَّأَثُّرِ ، فَأَقْبَلا عَلى «كَرِيمٍ» يُقَبِّلانِهِ وَيَسْتَوْضِحانِهِ ٱلْخَبَرَ . قالَ ٱلشَّيْخُ «جابِرٌ» وَصَوْتُهُ يَكادُ يَخْتَنِقُ بِٱلدَّمْعِ :

ـ ماذا تَقُولُ يَا ٱبْنِي ؟ هَلْ شاهَدْتَ «لَيْلى» حَقّاً ؟ بِرَبِّكَ ، هَلْ هٰذا صَحِيحٌ ؟

وَقالَتِ ٱلْأُمُّ ٱلْحَزِينَةُ وَهِيَ تَبْكِي وَتَضْحَكُ :

- كَرِيمُ ! أَحَقّاً رَأَيْتَ «لَيْلى»، ٱبْنَتي، حَبيبَتي ؟



أَجابَ « كَرِيمٌ » بِصَوْتٍ مُتَأَثِّرٍ :

- أَجَلْ ! أَجَلْ ! شاهَدْتُها !... إِنَّها «لَيْلى» ! إِنَّها « لَيْلى » عَيْنُها ! عَيْناها، شامَتاها... لا... لا يُمْكِنُ أَنْ أَكُونَ مُخْطِئاً .

ثُمَّ قَصَّ عَلى ٱلْوالِدَيْنِ كَيْفَ أَنْشَدَتْ « لَيْلى » ٱلأُغْنِيَةَ ٱلَّتي أَثارَتْ ٱنْتِباهَهُ . وَأَخْبَرَهُما بِٱضْطِرابِ «لَيْلى» وَخَوْفِها مِنْ أَنْ يَكْتَشِفَ ٱلنُّورُ، خاطِفُوها، حَقيقَةَ ما فَعَلَت . ثُمَّ أَرْدَفَ[١٠٦] :

- عَجِّلْ يا شَيْخُ !

أمامَنا طَرِيقٌ طَوِيلٌ، ومَسِيرَةُ يَوْمٍ كامِل!

قالَ ٱلشَّيْخُ «جابِرٌ» قَلِقاً:

– يَوْمٌ كامِلٌ؟ وَمَنْ يَضْمَنُ بَقاءَ ٱلنَّوَرِ فِي تِلْكَ ٱلْقَرْيَةِ لِلْيَوْمِ ٱلتَّالِي؟

أَجابَ «كَرِيمٌ»:

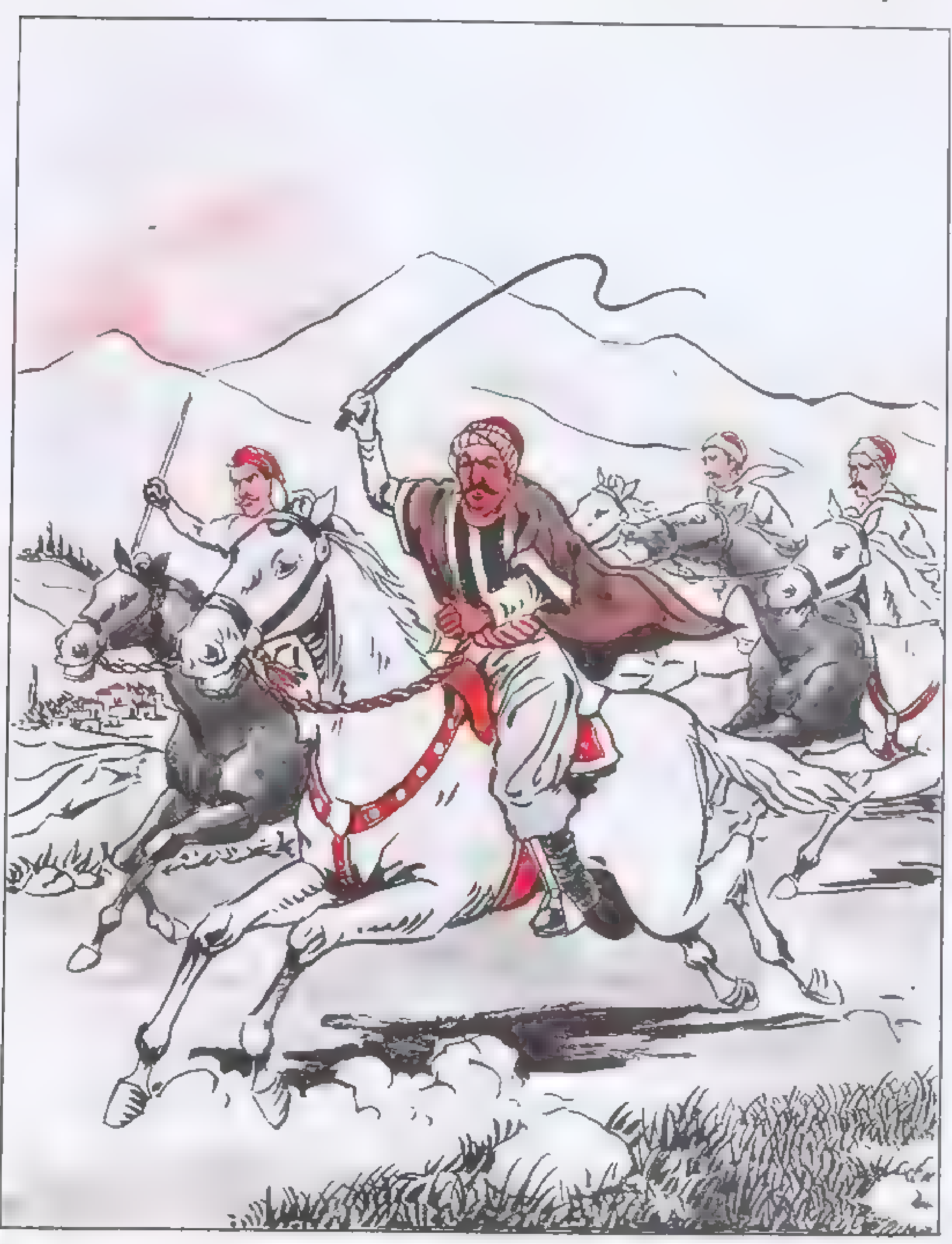
– لا! لا! أَلْاَحْتِفالُ بِعِيدِ ٱلرَّبِيعِ يَدُومُ أُسْبُوعاً كامِلًا. فَٱلنَّوَرُ بَاقُونَ فِي ٱلْقَرْيَةِ إِذاً عِدَّةَ أَيَّامٍ رَيْثَما[107] يَنْتَهِي.

أَخَذَ ٱلشَّيْخُ «جابِرٌ» يَدُورُ فِي ٱلْمَنْزِلِ مَهْزُولًا لا يَدْرِي ماذا يَفْعَل. نَادَى أَجِيرَهُ وَرِجالَهُ، وَراحَ يُصْدِرُ تَعْلِيماتِهِ وَأَوامِرَهُ وَقَدْ ضاقَ ذَرْعاً[108] بِٱلْاَنْتِظار.

ثُمَّ رَكِبَ وَعَشَرَةٌ مِنْ رِجالِهِ ٱلْبَواسِلِ ٱلْجِيادَ، وَٱنْطَلَقُوا إِلى غايَتِهِم. كانَ ٱلشَّيْخُ «جابِرٌ» يَتَقَدَّمُ ٱلْجَماعَةَ وَإِلى جانِبِهِ «كَرِيمٌ» بائِعُ ٱلسَّمْسِمِيَّة. وَما زالُوا يَجِدُّونَ حَتَّى بَلَغُوا ٱلْقَرْيَةَ مَساءً وَهِيَ تَرْفُلُ فِي حُلَّةِ ٱلْعِيدِ[109].

دَخَلَ ٱلشَّيْخُ «جابِرٌ» وَرِجالُهُ عَلى شَيْخِ ٱلْقَرْيَةِ، فَعَرَّفَهُ بِنَفْسِهِ وَقَصَّ عَلَيْهِ حِكايَتَه، فَوَعَدَهُ شَيْخُ ٱلْقَرْيَةِ بِأَنْ يُقَدِّمَ لَهُ كُلَّ مُساعَدَةٍ

وَعَوْن[١٠١] . وَخَرَجَ مَعَهُ وَمَعَ ٱلرِّجالِ ٱلْآخَرِينَ مُتَّجِهِينَ نَحْوَ مَوْضِعِ ٱلْاَحْتِفال .



تَفَرَّقَ ٱلرِّجالُ فِي أَرْجاءِ ٱلْمَكانِ مُراقِبِينَ جَماعاتِ ٱلنَّوَرِ، وَطافَ ٱلشَّيْخُ «جابِرٌ» مَعَ «كَرِيمٍ» باحِثَيْنِ مُسْتَطْلِعَيْنِ. فَرَأَيا بَعْضَ ٱلنَّوَرِ يَرْقُصُونَ وَيُغَنُّونَ، وَلٰكِنَّ «لَيْلى» لَمْ تَكُنْ فِي جُمْلَتِهِم.

وَفَجْأَةً سَمِعَ «كَرِيمٌ» صَوْتاً ناعِماً يَطِيرُ إِلى أُذُنِهِ وَسَطَ ٱلضَّجِيجِ، فَجَمَدَ فِي مَكانِهِ، وَأَمْسَكَ بِيَدِ ٱلشَّيْخِ «جابِرٍ» يَسْتَوْقِفُهُ. قالَ:

ـ هٰذا ٱلصَّوْتُ! أَتَسْمَعُ؟ إِنَّهُ صَوْتُ «لَيْلى»!

وَأَسْرَعَ ٱلشَّيْخُ «جابِرٌ» وَ«كَرِيمٌ» إِلى مَصْدَرِ ٱلصَّوْتِ، وَإِذا بِهِما أَمامَ «لَيْلى» تَرْقُصُ وَتُغَنِّي! لَمْ يَعْرِفِ ٱلشَّيْخُ ٱبْنَتَهُ مِنَ ٱلنَّظْرَةِ ٱلْأُولى؛ فَقَدْ كَبِرَتْ، وَنَحُلَتْ، وَتَبَدَّلَتْ مَلامِحُها. وَلٰكِنَّ قَلْبَ ٱلْأَبِ

يَدُلُّهُ عَلى وَلَدِهِ مَهْما فَرَّقَتْ بَيْنَهُما ٱلْأَيَّامُ . شَقَّ ٱلشَّيْخُ « جابِرٌ » صُفُوفَ ٱلْمُتَفَرِّجِينَ ، وَٱنْدَفَعَ إِلى ٱبْنَتِهِ فاتِحاً ذِراعَيْهِ صائِحاً :

ـ لَيْلى ! ٱبْنَتِي ! حَبِيبَتِي !

نَظَرَتْ « لَيْلى » إِلى والِدِها فَعَرَفَتْهُ لِتَوِّها[111] ، فَأَسْرَعَتْ تَرْتَمِي عَلى صَدْرِهِ وَتُشْبِعُهُ لَثْماً[112] ، وَهُوَ يُشْبِعُها ضَمّاً وَتَقْبِيلًا ، وَهُما يَكادانِ لا يُصَدِّقانِ حَقِيقَةَ ما يَجْرِي .

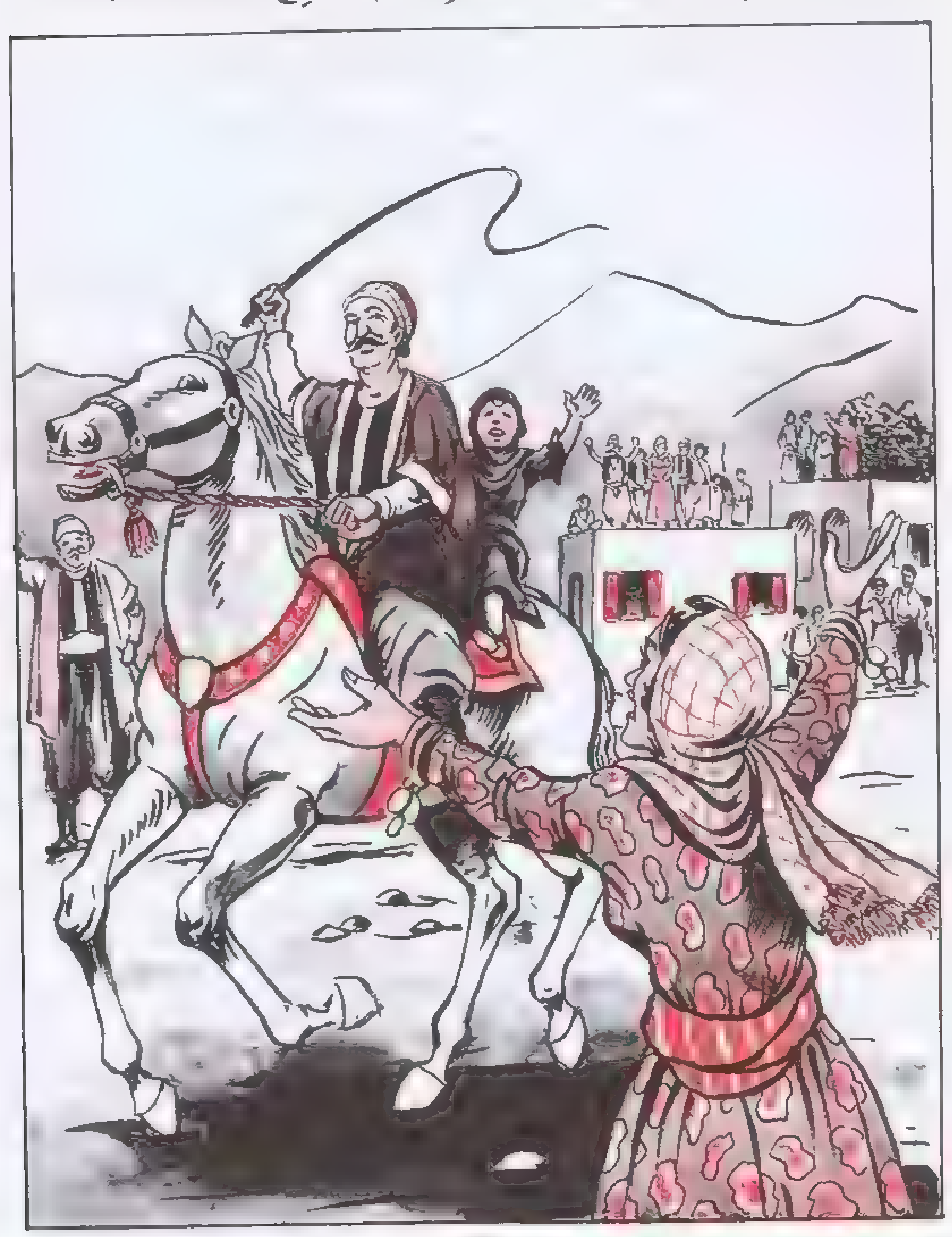
بَكَتْ « لَيْلى » ، وَبَكَى ٱلشَّيْخُ « جابِرٌ » ، وَٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِما يَنْظُرُونَ مُتَعَجِّبِينَ وَلا يَفْهَمُونَ . وَأَقْبَلَ شَيْخُ ٱلْقَرْيَةِ مُمْسِكاً بِرَئِيسِ ٱلنَّوَرِ ، فَأَمَرَ رِجالَهُ بِإِلْقاءِ ٱلْقَبْضِ عَلى ٱلنَّوَرِ رَيْثَما يَأْتِي رِجالُ ٱلدَّرَك . شَكَرَ ٱلشَّيْخُ «جابِرٌ» شَيْخَ ٱلْقَرْيَةِ ، وَٱنْصَرَفَ مَعَ رِجالِهِ ، وَقَدْ تَهادَتْ[113] «لَيْلى» مَعَهُ عَلى صَهْوَةِ[114] جَوادِهِ .

* * *

وَفِي صَبِيحَةِ ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي خَرَجَ أَحَدُ رِجالِ ٱلشَّيْخِ « جابِرٍ » مِنْ قَرْيَتِهِ عَلَّهُ يَظْفَرُ بِخَبَرٍ عَنِ ٱلشَّيْخِ وَجَماعَتِهِ . وَما إِنْ شاهَدَ ٱلْمَوْكِبَ يَتَقَدَّمُهُ ٱلشَّيْخُ وَ« لَيْلى » حَتَّى خَفَّ مُسْرِعاً إِلى ٱلْوالِدَةِ يُبَشِّرُها بِقُدُومِ ٱلْحَبِيبَةِ .

وَماجَتِ ٱلْقَرْيَةُ غِبْطَةً[115] ، فَخَرَجَتِ ٱلنِّساءُ مُزَغْرِداتٍ[116]

وَٱلْأَطْفـالُ وَراءَهُنَّ يُغَنُّونَ وَيَحْدُونَ[١٧]. وَتَرَكَ ٱلرِّجالُ أَعْمالَهُمْ وَجاؤُوا يَسْتَقْبِلُونَ «لَيْلى» . وَكانَتِ ٱلْأُمُّ تُسْرِعُ لِلِقاءِ ٱبْنَتِها وَقَدْ



عادَ إلَيْها ٱلشَّباب .

نَزَلَتْ « لَيْلى » مِنْ عَنْ جَوادِ أَبِيها وَهَرَعَتْ إلى أُمِّها . فَكانَ لِقاءٌ ، وَكانَ بُكاءٌ ، وَكانَ مَنْظَرٌ تَقَطَّعَتْ لَهُ قُلُوبُ ٱلنَّاسِ تَأَثُّراً . وَأَقْبَلَتْ صَدِيقاتُ « لَيْلى » يُهَنِّئْنَها وَٱلْفَرَحُ يَغْمُرُ قُلُوبَهُنَّ(١١٨) ، وَ « لَيْلى » تَبْكِي وَتَضْحَكُ ، تُقَبِّلُ ٱلْجَمِيعَ كِباراً وَصِغاراً .

دَعا ٱلشَّيْخُ « جابِرٌ » أَهْلَ ٱلْقَرْيَةِ وَسُكَّانَ ٱلْقُرى ٱلْمُجاوِرَةِ إلى ٱحْتِفالٍ أَقامَهُ عَلى شَرَفِ ٱبْنَتِهِ ٱلَّتِي كانَتْ مَيْتَةً فَعاشَتْ ، وَكانَتْ ضالَّةً(١١٩) فَوُجِدَتْ . وَقَضى أَهْلُ ٱلْقَرْيَةِ وَٱلْمَدْعُوُّونَ يَوْماً كامِلاً فِي قَصْفٍ(١٢٠) وَمَرَح .

وَعادَتْ « لَيْلى » إلى حَياتِها ٱلْهانِئَةِ ٱلرَّغِيدَةِ مَعَ أَبَوَيْها وَذَوِيْها وَصَدِيقاتِها ، شاكِرَةً رَبَّها حامِدَةً لِعَوْدَةِ ٱلصَّفاءِ بَعْدَ ٱلْكَدَرِ(١٢١) ، وَٱللِّقاءِ بَعْدَ تَفَرُّقِ ٱلشَّمْلِ(١٢٢) .

قاموسُ الكِتاب

١	ألقِطاف	: قَطْف العِنب في آخر الموسم لتحويله إلى دبس أو خمر .
٢	عِلالهم	: مفردُها «الغَلّة»، وهي ما يحصل عليه الإنسان من ثمار رزقه .
٣	ألدُّسوت	: مفردُها «الدَّسْت»، وهو وعاء كبير من نحاس، بشكل الطنجرة، يغلون فيه الماء لغسل الثياب، أو يطبخون فيه التين والدبس وغيرهما .
٤	يبيعونه من التجّار	: أي يبيعونه للتجّار الذين يشترون العنب لعَصْره .
٥	زاهية	: جميلة، مشرقة: « وجهٌ زاهٍ » .
٦	مُتَرَقِّصة	: مرتفعة ومنخفضة وكأنّها في رقص .
٧	زعيمها	: أبرز شخص فيها، سيّدها، قائدها .
٨	لِفِطْنَتِها	: لذكائها، لفهمها .
٩	شامَتَين	: مفردُهما «الشّامة»، وهي نقطة أو علامة سوداء في الوجه أو الجسم .
١٠	فتهافَتْنَ	: فأسرعنَ ، فتتابَعْنَ .
١١	يُمَنِّين النَفْس	: يعدْنَ النفس، ينتظرن .
١٢	المِهْرجانات	: مفردُها «المِهْرَجان» ، وهو الاحتفال بعيد أو غيره .
١٣	آيات	: مفردُها «الآية»، وهي العمل العظيم، أو الصفة العظيمة، أو الشخص العظيم: «هو آية في الذكاء» .
١٤	رُكن	: زاوية، جانب، قسم .
١٥	ألتُّرس	: قطعة من المعدن أو الجلد يحملها المحارب بإحدى يديه ويتّقي بها ضربات عدوّه .

١٦	ألنَّوَر	: جماعة من الناس يرحلون من مكان إلى آخر سعياً وراء العيش . وهم منتشرون في نواحٍ مختلفة من العالم .
١٧	كانوا متعة للناظرين	: أي كان الناظرون يجدون لذّة في النظر إليهم ويتمتّعون بهيئتهم وأعمالهم .
١٨	كَهْل	: من كانت سنّه بين الثلاثين والخمسين تقريباً .
١٩	رَثَتْ لها	: رحمتها، رقّ قلبها لها .
٢٠	في حوزتها	: في ملكها ، لها .
٢١	تجول ببصرها في أرجاء الساحة	: أي تدير نظرَها في أنحاء الساحة، في أقسامها .
٢٢	تريد أن لا يفوتها من العيد شيء	: أي تريد أن تلهو وتلعب وتتمتّع بكلّ ما في العيد من ألعاب ومأكولات وغيرها .
٢٣	جوار	: مجاورة، قُرْب .
٢٤	إطلاقاً	: عموماً، من غير استثناء .
٢٥	يكنّ	: يحفظ في قلبه .
٢٦	مودّة	: محبّة: « بينهما مودّة » .
٢٧	يُجِلّ	: يحترم، يعظّم .
٢٨	أعطى «ليلى» دون سواها قطعة إضافيّة من الحلوى	: أي أعطى «ليلى» وحدها زيادة على ما أعطى الآخرين .
٢٩	أصداء	: مفردُها « الصدى » ، وهو جواب الصوت يردّه إلى الأذن جبلٌ أو غيره .
٣٠	وقَبَعت	: وانزوت، واختبأت، واستترت: «قبع في منزله أيّام المطر » .
٣١	ولكنْ عبثاً حاولتْ	: أي حاولت وسعت ولكنّها لم تنجح، لم توفّق .
٣٢	تنفذ	: تخرج: تصل إلى .
٣٣	مُنفرَج	: مكان متّسع أو مكشوف .
٣٤	تسرَّب	: دخل، انتقل: «تسرّب السرُّ إلى الناس» .
٣٥	ألذُّعر	: الخوف: «دبَّ الذعر في قلبه» .

٣٦ أدركتْها : بلغتها، لحقتها .

٣٧ وما لبثت «ليلى» أن سمعت : أي سمعت «ليلى» بعد وقت قصير .

٣٨ أمتعتهم : مفردُها «المتَاع»، وهو ما يستعمل في البيوت من حاجات وطعام وأدوات وغيرها .

٣٩ مَضاربهم : مفردُها «المِضْرَب»، وهو الخيمة العظيمة .

٤٠ رَوّعها : خوفها .

٤١ ألوِهاد : مفردُها «الوَهْدَة»، وهي الأرض المنخفضة، أو الحفرة في الأرض .

٤٢ أخذ التعب من «ليلى» كلّ مأخذ : أي أثّر فيها التعب كثيراً .

٤٣ نَهرتْها : صاحت بها، طردتْها .

٤٤ حلّ الليل : هبط، نزل، خيّم .

٤٥ تُهَرْوِل : تُسرع .

٤٦ فأجهشت بالبكاء : فتهيّأت للبكاء .

٤٧ خرّت : سقطت، وقعت .

٤٨ خَراج القرية : ضاحيتها، ما يحيط بها من أملاكها .

٤٩ ألمَشاعل : مفردُها «المَشْعَل»، وهو القنديل .

٥٠ فاستبدّ القلقُ : فاشتدّ الاضطراب والخوف .

٥١ خائبين : خاسرين، غير موفّقين، من غير أن ينالوا مطلبهم .

٥٢ متجهّم : عابس .

٥٣ سرعانَ ما تحوّل رجاؤها إلى خيبة : أي فقدت الأمل بسرعة، فأصبح أملها يأساً .

٥٤ جَدوى : فائدة، نتيجة حسنة .

٥٥ بصيص أمل : بريق أمل، نور ضئيل من أمل .

٥٦ للرُّقاد : للنوم .

٥٧ حَراكاً : حركة .

٥٨ إنبلج الصّباح : طلع وأنار .

٥٩ بالحِنّاء : بنبات ورقه كورق الرمّان يُتّخذ منه صبغ أحمر للشّعر أو اليدين .

٦٠ ملامح : ما ظهر من الوجه .

٦١ بلا هوادة : بلا لين، بلا راحة، بلا رفق .

٦٢ ويعنّفونها : ويلومونها بشدّة، ويعاملونها بقسوة .

٦٣ سنحت لهم سانحة : تيسّرت، أو عرضت، أو حصلت، لهم فرصة .

٦٤ سعياً وراء المال : أي عاملين للحصول على المال .

٦٥ ترتجلها : تؤلّفها وتلقيها من غير استعداد سابق: «إرتجل الشاعر قصيدته» .

٦٦ غيرَ مرّة : أكثر من مرّة: «زرته غيرَ مرّة» .

٦٧ ويُجزلون : ويُكثِرون .

٦٨ فكفّوا : فامتنعوا، فتوقّفوا عن .

٦٩ بيد أنّ : غير أنّ، إلاّ أنّ .

٧٠ علّها تجد : أي أملُها ورجاؤها أن تجد .

٧١ ولكنْ أنّى لها أن ترى مَن تعرفه : أي كيف يُتاحُ لها، كيف تسمح لها الظروف، أن ترى بين الحاضرين شخصاً تعرفه ؟

٧٢ يستقرّون : يقيمون ويسكنون، ولا ينتقلون .

٧٣ يستغرق : يدوم، يبقى .

٧٤ يبعث : يُدخِل .

٧٥ مخلّفين : تاركين .

٧٦ فانسابت : فسالت، فانحدرت .

٧٧ لا يعكّر صفوَ حياتها غمٌ أو كرْب : أي لا يُفسد هدوء حياتها وسعادتها حزنٌ .

٧٨ وطافت ببصرها : أي وأجالت نظرها، وأدارت نظرها .

٧٩ لم تذق للحلوى طعماً : لم تعرف طعم الحلوى، لم تأكل شيئاً من الحلوى .

٨٠ لَوعتها : حزنها .

٨١ غَمرة : شدّة، زحمة .

٨٢ ولكن هيهات أن يتمّ لها ذلك : أي بعيدٌ جداً، صعبٌ جداً، أن تتمكّن من ذلك .

٨٣ وهَبْ أنها تمكّنت من ذلك، فكيف تثبت حقيقة هويّتها : أي لنفترض أنّها عرّفت أحد المتفرّجين بنفسها، فكيف تتوصّل إلى أن تقنعه بأنّها حقّاً «ليلى» ؟

٨٤ غدت : باتت، أصبحت .

٨٥ طَرْفها : عينها، أو نظرها .

٨٦ بالنّشوة : بالسرور العظيم، بالسعادة العميقة .

٨٧ أثارت بها الإعجاب : أي أعجبت بها الحاضرين .

٨٨ منُفعل : متأثّر .

٨٩ بإمعان : بمبالغة، بدقّة .

٩٠ المتُقّدتان : المشتعلتان، المتلألئتان، الملتمعتان .

٩١ الضّوْضاء : الضّجّة واختلاط الأصوات .

٩٢ مُعرضة : مولّية، منصرفة، مائلة .

٩٣ تسلّل : خرج وانطلق في خفية، من غير أن يشعر به أحد .

٩٤ الغفيرة : الكثيرة .

٩٥ وجدَّ : وأسرع .

٩٦ بزُوغ : طلوع، شروق .

٩٧ منهوكاً : وقد تعب أشدّ التعب .

٩٨ أسارير : خطوط في الوجه والجبهة .

٩٩ تطفح بِشراً : تمتلىء وتفيض فرحاً وبشاشة وانطلاقاً .

١٠٠ قَرْناً : مقدار مئة سنة من الزمان .

١٠١ أخاديد : مفردُها «الأخدود»، وهو الحفرة المستطيلة .

١٠٢ واجمين : ساكتين عاجزين عن التكلّم من كثرة الحزن .

١٠٣ وطَيف : وخيال، وصورة .
١٠٤ على هذا النّحو : أي على هذا الشكل .
١٠٥ تنهمر : تسيل، تنصبّ بقوّة .
١٠٦ أردف : أضاف، تابع .
١٠٧ ريثما : حتى، بانتظار أن .
١٠٨ ضاق ذَرْعاً : أي لم يقدر، لم يصبر .
١٠٩ ترفل في حلّة العيد : أي تتبختر، وتزهو، وتسعد، في ثياب العيد .
١١٠ وعَوْن : ومساعدة .
١١١ لِتوّها : رأساً، من غير تأخُّر .
١١٢ لَثْماً : تقبيلاً .
١١٣ تهادت : تمايلت .
١١٤ صَهوة : موضع السرج على ظهر الفَرَس .
١١٥ وماجت القرية غبطةً : أي وتحرّكت القرية واضطربت سروراً .
١١٦ مُزَغْرِدات : رافعات أصواتهنّ بالغناء أو الترحيب أو التهنئة .
١١٧ ويحْدُون : ويغنّون نوعاً معيّناً من الغناء يُعرف بـ «الحُداء» .
١١٨ يهنّئنها والفرح يغمر قلوبهنّ : أي يهنّئنها بالسلامة والفرح يملأ قلوبهنّ .
١١٩ ضالّة : ضائعة .
١٢٠ قصْف : أكل وشرب ولهو .
١٢١ ألكدَر : ألغمّ، ألحزن .
١٢٢ تفرُّق الشّمل : تفرُّق مَن اجتمع من الأهل والأصدقاء .

الأسئلة

١) ما هو العيد الذي تحتفل به القرية ؟

٢) أعطِ أسماء بعض المواسم التي يُحتفل بها في « لبنان » .

٣) هل تحتفل المدينة أو القرية التي تعيش فيها بمواسم مماثلة ؟ ما هو الموسم ؟ كيف يحتفل به ؟

٤) كيف تمكنت النوريّة (او الغجرية) من اختطاف « ليلى » ؟

٥) هل تعوّدت « ليلى » بسهولة على الحياة مع النوَر ؟

٦) ما هي الأمور التي تتعلمها فتيات النّوَر لكسب العيش ؟

٧) هل شاهدت مرة بعض أفراد النّوَر ؟ ماذا كانوا يفعلون ؟

٨) من هو « كريم » ؟ ماذا فعلت « ليلى » حتى عرّفته على نفسها ؟

٩) ما هي الحيلة التي اتّبعها « كريم » والشيخ « جابر » للوصول إلى « ليلى » من غير أن يعرف بهما النوَر ؟

١٠) ما هو الشعور الذي انتابك عندما اجتمع شمل عائلة المختار بعد الفراق المرير ؟

١١) هل سمعت بحادثة خطف مشابهة الى حدّ ما لما قرأت في هذه القصّة ؟ ما هي ؟ اكتب تفاصيلها بنحو عشرة أسطر .

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ١٥ آذار (مارس) ١٩٨٩
على مطابع دار غنــدور ش. م. م.
بــيروت

١٩٨٩ – ٣ / ٢٠٨

منشوراتنا القصصية

١ يا بياع السمسمية
٢ أبو الخيمة الزرقاء
٣ حدثني يا ابي
٤ اسرى الغابة
٥ ملح ودموع
٦ يوم عاد ابي
٧ صندوق أم محفوظ
٨ جدتي
٩ عنب تشرين
١٠ عازفة الكمان
١١ وكان مازن ينادي
١٢ كانت هناك امرأة
١٣ يوم غضبت صور
١٤ بابا مبروك
١٥ الأنامل السحرية
١٦ المغني الكبير
١٧ جلجامش
١٨ نور النهار
١٩ النسر الكريم
٢٠ رنين الخناجر
٢١ النجمتان
٢٢ اين العروس
٢٣ بجزيرة الوهم
٢٤ الغرفة السرية
٢٥ النار الخفية
٢٦ الحاج بجبح
٢٧ جوهرة الجواهر
٢٨ دهليز الغرائب
٢٩ التجاريب
٣٠ الصحائف السود
٣١ سلسلة من حكايات بيدبا
٣٢ كوب من العصير
٣٣ المنجّم «عصفور»
٣٤ مغامرات أوليس
٣٥ وطلع الصباح
٣٦ اسطورة البحر
٣٧ الشريط المخملي
٣٨ سبايا
٣٩ الشكبون
٤٠ الحب والربيع
٤١ غرباء
٤٢ خاتم ... لبّيك!
٤٣ وزّة الريش الذّهب
٤٤ من أجل عينيها
٤٥ **نهرنا الصغير**